وهنا أوجزت الدكتورة: أميرة حلمى مطر ما ذهب إليه رسل فى موقفه تجاه المذاهب الدينية المسيحية، ورؤيتها لأخلاقيات الجنس بقولها: «أن زيادة الاهتمام بالجنس وتسلط فكرة الحرية الجنسية فى الحضارة الحديثة، إنما كان استجابة عكسية للتعاليم المسيحية التى أحاطته بكثير من القيود والمعتقدات الخرافية القديمة»[1].

ويمكن تلخيص رأى رسل بإيجاز فى فصله بين الجنس والدين، ودعوته للحرية الجنسية، فى رؤيته التى لا يقبلها دين من الأديان، ولا تقرها أية أخلاق إنسانية، و إنما كانت عند الباحث مجرد اقتراح، ولا يزيد عن كونه «اقتراح» فى قوله: «أن حياة معظم طلبة الجامعة ستكون أفضل من الناحية الفكرية والأخلاقية، إذا عقدوا زيجات مؤقتة دون إنجاب أطفال». بل كتب يقول «أن هذا سوف يقدم مخرجًا للدافع الجنسى، دون ممارسة الجنس فى قلق أو فى الخفاء، وهى ممارسة لن تكون مرتزقة أو عارضة، كما أنها من نوع ليس من شأنه أن يضيع وقت الطلبة الذى ينبغى تكريسه للعمل، وأنه حتى الآن لم تنظر أية سلطات جامعية إلى هذا الاقتراح بعين العطف»[2].

ومما يعجب له المرء وتقشعر منه النفس الإنسانية ما جاء على لسان «جريلينج» عندما كتب عن رسل يقول «وفى عام 1920م قام رسل وزوجته «دورا» بإنشاء مدرسة فى الريف على مساحة 200فدان، ولكن سرعان ما ثبت فشل هذه المدرسة فى تغطية مصاريف الحياة المعيشة وكذلك الأعباء الأسرية، وبعد أن فشلت هذه المدرسة التى أسسها رسل وزوجته، وكذلك موت أخيه زادت الديون والأعباء عليه، مما دفع زوجته «دورا» إلى إقامة علاقات غير شرعية مع رجال آخرين، وهنا لم يكن رسل يمانع ذلك أو يرفضه طالما أن نتاج هذه العلاقات لا ينسب إليه كرجل»[3].

## رابعا: الجنس ومشكلة الحب

إلى أىٍّ حد يمكن القول بوجود علاقةً وطيدةً بين الحب والجنس؟ وهل يمكن اعتبار الحب سببًا من أسباب الزواج أو الجنس؟ وما الكيفية التى ظهر بها الحب فى فلسفة برتراند رسل

(1) أميرة حلمى مطر: مقالات فلسفية حول القيم والحضارة، مرجع سابق، ص 43.
(2) آلان وود: برتراند رسل - سيرة حياة، مرجع سابق، ص 223.
(3) A.C. Grayling: Russell, A Very Short Introduction, Op. cit, pp.21,22.

الأخلاقيـة؟ وما هو الحب العذرى؟ وهل هناك علاقة بين الحب العذرى والحب الرومانتيكى؟ بمعنى - هل من الممكن اعتبار الحب العذرى مرادفًا لمفهوم الرومانتيكية للحب؟

إن الحب Love نقيضُ البغض، وهو الوداد والمحبة والميل إلى الشيء السـار، والغرض منه إرضاء الحاجات المادية أو الروحية، وهو يترتب على كمالٍ في الشيء السار أو النافع، يفضى إلى انجذاب الإرادة إليه، كمحبة العاشـق لمعشوقته، والوالد لولده، والصديق لصديقه، والمواطن لوطنـه، والعامل لمهنته[1]. وهذا التعريـف المعجمى إن دل على شيء، فإنما يدل على قدم مفهوم الحب، فهو منتشر بين شـتى مناحى الحياة الإنسـانية، وهذا ما أكد عليه برتراند رسـل بالفعل عندما قال: «أنه منذ أدرك الإنسان معنى الحياة عرف أيضًا معنى الحب، فالحب من أهم الأشياء فى حيـاة البـشر، وأن أى نظام اجتماعى يعمـل على الحد من التطور الطبيعـى للحب لهو نظام قاصر وفاسد»[2].

وأهمية الحب تنبع من داخل حياة رسـل ذاتها، فالحب وطيد الصلة بحياة الإنسان المعيشة منـذ ميلاده على هذه البسـيطة، وقد عبر فيلسـوفنا عنه بكلمات جذابـة فى معناها بقوله « لقد لجأت إلى الحب أولاً، لكونه يجلب النشوة، وهى نشوة وصلت من العمق حدًا كان يمكن معه أن أضحى بما بقى من الحياة من أجل بضع سـاعات من هذه السعادة. ثم تلمسته ثانيًا، لأنه يخفف الوحـدة. هذه الوحـدة الرهيبة التى يشرف فيها الوعى الراجف على حافة عالم يدلف إلى هوة باردة سـحيقة لا يسبر لها غورًا ولا حياة فيها. ثم تلمسته أخيرًا، فى الرؤية التى تتمثل للشعراء والقديسـين حينما ينظرون بعين الخيال إلى الفردوس، وذلك عن طريق الحب الذى يربط بين قلبين ربطًا كاملاً، فيستشعران تجارب العشاق الإلهيين، هذا ما سعيت إليه، وبالرغم من أنه قد يبدو أفضل مما تمنحه حياة الإنسـان، فقد كان فى النهاية - هو ما وجدته»[3]. ويسـتطرد بقوله: «تلـك كانـت حياتى، لقد وجدت فيها ما اسـتحق أن أعيش من أجله، ولـو منحت لى الفرصة لأسعدنى أن أعيشها مرة أخرى»[4].

(1) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، المجلد الأول، مرجع سابق، ص439.
(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص101.
(3) برتراند رسل: سيرتى الذاتية، مصدر سابق، ص7.
(4) المصدر السابق: ص8.

إن رؤية رسل كفيلسوف لمفهوم الحب، تجعله يبدد ما ذهب إليه البعض، فى اعتبارهم أن الحب موضوع قديم، قد احتكره منذ الأزل أهل الأدب من الشعراء والراوئيين والقصاصين، فقال أحدُهم إن الحب ليس في حاجة إلى فلاسفة أو محللين، بل هو في حاجة إلى شعراء أو فنانين، حيث أن مقولات الفلاسفة مجرد مقولات عقلية لا يمكن أن تدخل في قوالبها الانفعالات الإنسانية العميقة التى اعتاد الأدباء أن يعبروا عنها[1].

إن الرؤية التى قدمها رسل لمفهوم الحب تختلف عن رؤيته لمفهوم الحب العذرى، فقد رأى فيلسوفنا أن الحبَّ العذريَّ(*) هو ذلك الحب الذى لا غاية له، فهو عاطفة من أقدم العواطف الإنسانية، وإن كان لم ينتشر بصورة واضحة بين الناس فى بلدان أوربا إلا فى القرون الوسطى[2]. «حيث اكتسبت المشاعر والأحاسيس بشكل عام فى العصور الوسطى أهمية خاصة فى الحب الرومانتيكى Romantic Love، فقد كانت النظرة إلى عاطفته بأنها شيءٌ محبوبٌ من الصعب امتلاكها، لذا كان الكثيرون يبذلون المجهودات الشاقة على شتى الطرق من أجل الفوز به، أما إذا قلنا بأن الحب الرومانتيكى هذا لم يكن موجودًا قبيل العصور الوسطى، فإننا نكون قد جانبنا الصواب»[3].

ومضمون ذلك الحب، كما يقول الفيلسوف محل الدراسة، هو اعتبار الحبيبة شيئًا مقدسًا ساميًا لا تصل إليه يد العاشق الولهان، فهو لا يطمع فى وصال، ولا يبتغى منه مطمعًا، قانعًا بما يبذله من مجهودات شاقة لكسب قلب الحبيبة، أهونها نظم القصائد والأشعار، وعزف ألحان القيثارة، وأصعبها إظهار البراعة فى القتال، والتفوق على الأقران[4].

ويتضح مما سبق أن رسل هنا يستخدم مفهوم «الحب العذرى» الذى عبر عنه فى «عالمنا المجنون» كمرادف «للحب الرومانتيكى» الذى جاء فى مؤلفه «الزواج والأخلاق»، وأيًا كان

(1) زكريا إبراهيم: مشكلة الحب، مكتبة مصر، القاهرة، 1984، ص19.

(*) الحب العذرى مصطلحًا مشتقًا من الكلمة الإنجليزية Virgim وتعنى العذراء أو البكر، وعند الفلكيين يدعى برج العذراء Virgo ..المؤلف.

(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص107.

(3) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.37.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص107.

الحـب «رومانتيكيًـا» أم «عذريًا» فما هو إلا تعبير عن الحـب الأفلاطونى. وعلى أية حالٍ فإن الرومانتيكيين توسـعوا في مجال الحب بالمفهوم الأفلاطـونى، إذ أصبح الحب عندهم فضيلة من أعظـم الفضائل، يتم به تطهـير النفوس، والتكفير عن الخطايا، ففـي مسرحية فيكتور هوجو «ماريون ديلورم» تكفر البغي عن خطاياها بواسطة الحب والإخلاص فيه، بل تحولت العاطفة عنـد الرومانتيكيين إلى نوع مثالى عذرى، ففي مسرحية هوجو «روى بلاس»Ruy Blass نجد البطل يعترف بحبه للملكة فيقول: «أحبك حبا صادقًا... وا أسفاه... إنى أحلم بك حلم الأعمى بالضوء، سـيدتى أصغـى إلي، عندى أحلام لا نهاية لها، أحبك من قريـب ومن بعيد وفي أعماق الظلام، ولا أجرؤ على لمس إصبعك»[1].

يرى رسـل أن: «الحب الرومانتيكى ظهر فى العصور الوسـطى بطريقـة غير مباشرة، فهو لم يكـن موجهًـا فى البداية تجاه المرأة التى كانت على علاقة جنسـية شرعية أم غير شرعية مع عشيقها، و إنما وجه الحب العذرى نحو النساء الأكثر إلتزامًا وتدينًا»[2]. وذلك للاعتقاد بالقيمة العظيمة لمكانة المرأة Lady وصعوبة الحصول عليها[3].

إن صعوبـة نيل المحبوبة - عند فيلسـوفنا - هو العلة النفسـية التى تجعـل المحب الولهان يعتقد فى سموها، و إحاطتها - من ثم - بهالة من التوقير والتقديس، فإذا كان فى مقدور العاشق أن ينـال محبوبتـه، فلن يكون حبه لها عذريًا أو شـاعريًا. وقد كان ذلك الحب الذى شـاع فى العصور الوسطى موجهًا إلى نساء من الطبقة العليا ذات السلطان والجبروت، لا يستطيع العاشق أن يتصل بهن اتصالاً جنسيًا مشروعًا أو غير مشروع. أضف إلى ذلك ما كان للكنيسة من تأثير هائل يوقع فى النفس أن الاتصال الجنسى أمر شـائن ومستهجن، فأصبح الشعور الجميل بالحب غير ممكن إلا إذا كان حبًا أفلاطونيًا خالصا[4].

ويحاول رسل تحليل ما وصل إليه الحب العذرى فى العصور الوسطى، فيرى: «أنه من المتعذر على القارىء العصرى أن يتصور الحالة النفسـية لشعراء الغرام والغزل فى القرون الوسطى. فقد

(1) على عبد المعطى محمد: فلسفة الفن، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص32.

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.38.

(3) Ibid: p.37.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص ص107، 108.

كان الشاعر منهم يتغزل فى حب فاتنته، ولكنه لا يطمع فى الاقتراب منها بأية صورة من الصور. وقد يتوهم القارىء العصرى أن ذلك الحب لم يكن إلا تقليدًا من تقاليد الآداب فى ذلك العصر، بيد أنىَّ أؤكد له أن حبًا كحب «دانتى» لـ«بياترس» كان جارفًا صادقًا بدرجة لا يمكن أن يصل إليها عشاق العصر الحديث، ولكن أهل تلك العصور كانوا يرون أن الحياة الدنيا لا قيمة لها، وأن الغرائز الدنيوية ليست إلا نتاج الخطيئة والفساد، ومن أجل ذلك كرهوا الجسد ورغائبه، وكان المثل الأعلى للسعادة لديهم هو الوصول إلى حالة من النشوة الروحانية التى لا تشوبها شائبة من شوائب الجسد ولذاته! فإذا أحب أحدهم أية امرأة محترمة، فإنه فى هذه الحالة لم يكن يسمح لنفسه بأن يتصور اتصاله بها إتصالاً جنسيًا، لأن كل ما هو جنسى فهو دنس فى نظره... وعلى هذا فلم يكن أمامه سوى الاتجاه العذرى الشاعرى الأفلاطونى المبنى على الخيال»[1].

**وهنا يتساءل الكاتب:**

**إذا كان الحبُّ العذريُّ لزامًا على عشاق العصور الوسطى المسيحية، فهل كان له امتداد فى الفترة الحديثة والمعاصرة؟ أم ارتبط كل من الجنس والحب برباط الزواج؟؟ وما هو تحليل برتراند رسل لذلك؟؟**

يرى رسل: «أنه عند بزوغ عصر النهضة الأوربية، بدأت حضارة القدامى- والإغريق بصفة خاصة تستعيد سطوتها، فانسلخت عن الحب صبغته الأفلاطونية، وإن بقيت له صبغته الشاعرية، بيد أنها شاعرية صريحة تستهدف الفوز بقرب المحبوبة والتمتع بوصالها. وقد بلغ من لزوم التعبير الشعرى عن عاطفة الحب فى عصر النهضة أن كان العاشق الذى لا يفتح الله عليه بقصيدة عصماء يبث بها محبوبته هواه، يستأجر شاعرًا لهذا الغرض، وكان من الشعراء من يحترف ذلك النظم، بأجر معين يتقاضاه عن كل بيت من أبيات الشعر. وما أن سهل منال المرأة حتى انتهت الحاجة إلى الأسلوب الشعرى فى الغزل، واستعمل الرجال وسائل أخرى لاقتناص قلوب النساء، وما من شك فى أن سهولة منال المحبوبة فى عصرنا الحديث هذا قد أثرت فى الشعر والفن والموسيقى تأثيرًا هادما»[2].

(1) المصدر السابق: ص 108.

(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص 109.

وبعد الحديث عن عصر النهضة الأوربية نجد فيلسوفنا يعود بنا إلى العصر الرومانى للكشف عن ماهية الحب فيه، وتلك الكيفية التى ظهر بها الحب والجنس، فرأى أن: »شاعريةَ الحب قد بلغت ذروتها العليا فى العصر الرومانى، ذلك العصر الذى فى إمكاننا أن نعتبر الشاعر «شيلى»(*) لسانه المعبر وصاحب لوائه، فإنه حينما كان قلبه يخفق بالحب كان يصب عواطفه كلها فى قالب شعرى جميل ورائع، لأن محبوبته كانت تضن عليه بالوصال، ولو أن تلك المحبوبة البائسة «أميليا فيفانى» لم تحمل إلى الدير قسرًا كى يحول أهلوها بينها وبين حبيبها الشاعر، لما ظفر الأدب بتلك الرائعات الفذة من شعر الغزل والنسيب التى أبدعها «شيلى» تحت عنوان «أبيسيكيديون»(1).

وعقب الثورة الفرنسية انتشرت فى أوربا وأمريكا موجة فكرية تنادى بأن الزواج يجب أن يسبقه حب عذرى، فلا يقوم على أساس التقاليد والاتفاق بين الأسرتين دون نظر إلى عواطف العروسين، بيد أن التجربة قد أثبتت فشل كثيرٍ من زيجات الحب العذرى، لأن ذلك الحب يوهم العروسين أنهما سيعيشان فى نشوة دائمة، ثم تأتى وقائع الحياة الزوجية وما يكتنف الاتصال الجنسى من توافق أو تنافر، فتتبدد تلك الصورة الخيالية، وتكون الصدمة شديدة وممعنة فى شدتها، ولا سيما للمرأة إذا كانت قد تربت على الجهل بالجنس أو النفور منه»(2).

وبعد أن حاول رسل تحليل مضمون الحب العذرى(**) الذى يعد غاية فى ذاته، فهو عبارة

(*) هو الشاعر الإنجليزى الرومانتيكى بيرسى بيش شيلى Percy Bysshe Shelley ولد فى 4 أغسطس عام 1792م، وتوفى فى 8 يوليو لعام 1822م، ويعد شيلى واحدًا من أفضل الشعراء الغنائيين فى البلاد الناطقة بالإنجليزية، وقد عُرف بقصائده القصيرة مثل «أوزيمانديا‌س» Ozymandias، «أغنية للرياح الغربية» Ode to the west، «السحاب» The Cloud، كما أن أعماله المهمة تتضمن قصائده الروائية الطويلة مثل «روح العزلة» Alastor، «ثورة الإسلام» The Revolt of Islam. وقد تأثر به الكثير من الشعراء الفيكتوريين أمثال «روبرت براوننغ» كما تأثر به «هنرى ديفيد ثورو»، وقد أعجب به كل من «كارل ماركس» و«برتراند رسل».

Look - http://en.wikipedia.org/wiki/Percy_Bysshe_Shelley (24/4/3/2013)

(2) المصدر السابق: ص 110.

(3) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(**) يرى الكاتب أن رسل أطلق على مفهوم الحب العذرى فى كتابه «عالمنا المجنون» مسمى «الحب للحب» Love for Love وكان يقصد به معنى الحب الأفلاطونى، بينما فى مؤلفه «الزواج والأخلاق» أطلق عليه=

عـن صورة مثالية للنزعـة الأفلاطونية وتمجيدها لليوتوبيا، فمبدأ الحب العذرى عند رسـل هنا يشابه إلى حد بعيد فكرة «الفن للفن» Art for Art فى مثاليتها الكانتية، ومن ثم حاول فيلسوفنا تحليـل مضمون الحب الأصيـل Intrinsic Love الذى نهايته الزواج سـواءً كان شرعيًا أم غير ذلـك، فرأى رسـل: «أن الاسـتعمال الصحيح لكلمة الحـب لا يدل على أية علاقـة بين الرجل والمرأة، و إنما يدل على عاطفة قد تنطوى عليها هذه العلاقة»[1]. وهذه العاطفة emotion ذات علاقة نفسـية وجسـدية تصل فى قوتها إلى أية درجة من درجات القوة والصرامة، وقد تكونت هـذه العواطـف تجاه الحب مـن خلال التجارب وخبرات السـنين التى مر بهـا كل من الرجال والنساء[2].

و يرى رسل أن ازدهار عاطفة الحب فى بعض المجتمعات، وعدم ازدهارها فى بعضها الآخر، إنمـا يرجع إلى الاختلاف فى العادات والتقاليـد الموروثة، وقيم هذه الأفراد، وليس إلى اختلاف فى طبيعة الأفراد[3]. ولذلك يقول رسل: «إننى لا أجد مبررًا لذلك العداء التقليدى القديم الباقى بين الدين والحب، والذى لا يزال أثرُه راسخًا فى نفوس الناس»[4].

وكما حاول رسل تحليل مضمون الحب العذرى من قبل - فى المجتمعات الكنسية فى العصور الوسـطى، والمجتمع الرومانى - يحاول أيضًا تحليل مضمـون الحب الأصيل[*] فى عدة صور من المجتمعـات سـواءً كانت قديمة أو حديثة، فبدأ فيلسـوفنا بالمجتمع الصينى فرأى «أن عاطفة

---

= «الحب الرومانتيكى» Romantic love ومن ثم حاول توضيح ما وصلت إليه العصور الوسطى المسيحية فى تفسيرها لمعنى الحب، ومن هنا اختلف مفهوم الحب فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة عن الفلسفة المسيحية التى مجدت به الزهد وحياة الوحدة.

(1) المصدر السابق: ص101.

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.62.

(3) Ibid: p.62.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص107.

(*) يشير الكاتب هنا إلى حقيقة مؤداها أن رسل فى كتاباته لم يشر إلى كلمة الحب الأصيل Intrinsic Love و إنما المعنى الذى قصده هنا هو الحب، واستخدم لها نفس المعنى ونفس الكلمة، بينما أراد الباحث هنا التفرقة فى بحثه بين مفهوم الحب العذرى الذى أسماه بالرومانتيكى تارة، وبالحب الأفلاطونى تارة أخرى، وبين مفهوم الحب الذى يقصده رسل فى شتى كتاباته، والذى غايته الزواج أو العلاقة الجنسية، فالحب هنا يعد وسيلة للتقرب إلى المحبوبة والظفر بها، ولا يقف عند حد العشق اليوتوبى.

الحب كانت فيه نادرةً جدًا، حيث أظهر لنا التاريخ أن الحب هو سمة الأباطرة الضعفاء، فقد كانوا يستخدمونه لتضليل عشيقاتهم وجواريهم سيئات السمعة، وعلى ذلك قامت الثقافة التقليدية الصينية برفض كل العواطف القوية، حيث كان واجبًا على كل رجل رشيد تحكيم عقله فى كل الظروف، وقد تشابهت حالة المجتمع الصينى العاطفية مع المجتمع الأوربى فى بدايات القرن الثامن عشر »[1].

بينما عند ظهور الحركة الرومانتيكية، وكذلك الثورة الفرنسية والحرب العظمى، بدأ الإنسان يدرك أن العقلَ هنا قد فقد سيطرته فى الحياة الإنسانية، وفى عهد الملكة «آن» Queen Anne أعتبر العقل ذاته خائنًا، وخاصة بعد ظهور مذهب التحليل النفسى the doctrine of psycho analysis حيث أصبحت هناك موضوعات أساسية فى الحياة الحديثة، وهى ثالوث الدين والحرب والحب، فهذه المفاهيم الثلاث يعدها البعض أنها تقع خارج نطاق العقل، حتى أخطأ البعض فى اعتبار الحب معاديًا للعقلانية (ينظر العقليون من فلاسفة عصر التنوير إلى العواطف والأحاسيس وكذلك الحب إلى أنها تعوق التفكير العقلى المجرد)، بينما اعتقادى هنا أن الرجلَ العاقلَ يشعر بالبهجة والسرور فى وجود الحب[2].

ويؤكد رسل أنه: «فى العصر الحديث وجد العداء والصراع بين كل من الدين والحب، وهو لا يعتقد أن هذا الصراع كان يمكن تجنبه، وهذا يرجع فى اعتقاده إلى أن الديانة المسيحية تختلف عن باقى الأديان الأخرى فى تمجيدها ومدحها للزهد وحياة العزوبية، كما كان هناك عدوٌّ آخر للحب، وقد كان أكثر خطورة ألا وهو إنجيل العمل والنجاح الاقتصادى الذى كان منتشرًا فى أمريكا بصفة خاصة»[3]، حيث أصبح الناس يحرصون كل الحرص على جمع أكبر قسط من الربح، ولو كان ذلك على حساب الحب. وهو طبعًا لا ينكر أن النجاح فى العمل أمر مرغوب فيه، بيد أن المرء يجب ألا يسرف فى أىّ أمر، كما يجب ألا يقصر فيه، بل يتخذ طريقًا وسطًا بين هذا وذاك. وقد يكون من الحماقة والغباء أن يضحى الإنسان بمستقبله فى سبيل الحب فى بعض الأحيان، ولكن من الحماقة أيضًا أن يضحى بالحب فى سبيل مستقبله[4].

(1) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.62.

(2) Ibid: p.62.

(3) Ibid: p.63.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص102.

يـرى رسـل أن التضحيـةَ من النـوع الأول قد تعـد لونًا من ألـوان البطولـة أحيانًا، ولكن التضحية من النوع الثانى لا تعد بطولة على الإطلاق. على أن ما يدعو للأسـف حقًا أن المجتمع العصرى تغلب عليه نزعة التضحية بالحب، وذلك لأنه مجتمع مبنىٌّ على أساس التزاحم فى سبيل المال، ولا شىء سوى المال[1].

ويحاول رسـل هنا اسـتخلاص مضمونَ الحبِّ مـن فكرة الطبيعة، فـيرى: «أن الطبيعة لم تخلق الكائنات البشرية لتعيش وحدها، والرجل لا يسـتطيع أن يحقق رسـالته البيولوجية بغير إمرأة، كذلك الحال بالنسبة للمرأة، فهى لا تستطيع بغير رجل أن تحقق هذه الرسالة. والإنسان المتمدن لا يستطيع إشباع غريزته الجنسية إشباعًا صحيحًا بغير حب، ذلك أن الغريزة لا يمكن إشباعها حقًا إلا بأن يشترك الرجل والمرأة بكل كيانهما ذهنيًا وجسديًا فى هذه العلاقة. والذين لم يتذوقـوا متعة الامتزاج الروحى الوجدانى العميق، والإنسـجام النفـسى الذى ينطوى عليه الحب المتبادل، قد فاتهم أمتع شىء أعدته الحياة للإنسـان، وهم عن طريق اللاشـعور يدركون ذلـك فيمتلكهم اليأس، واليأس هنا يدفعهم إلى الحسـد والحقد والقسـوة والميل إلى الإضطهاد. فلنعمل إذن- بكل ما فى وسعنا،لإسـتئصال الإحسـاس بالإثم الذى تقرنه التقاليد البالية بالحب والحيـاة الجنسـية، حتى بعد الزواج، فإن هذا الأمر يسـبب الكثير من الإضطرابات النفسـية والعاطفية»[2].

ويؤكد رسـل على وجود عقبة سـيكولوجية أخرى تعوق ازدهار الحب فى العصر الحاضر، ويعـنى بها فيلسـوفنا - اعتقاد الناس أن العزلـة والانطواء على النفس بما يحفـظ للمرء كرامته وشـخصيته، وهذا محض خطأ. فالشخصية ليسـت هدفًا لذاتها، ولكنها وسيلة لتمهيد الاتصال بالناس، والشـخصية التـى تحفظ فى صندوق من الزجاج تذبل وتضعف، بينما الشـخصية التى تنفق منها بغير حساب فى الاتصال بالآخرين تزداد قدرة وقوة على مر الأيام[3].

ومـن هنا يرى برتراند رسـل أن تهيئةَ الطريق لفهم الحب الصحيـح أمرٌ ينبغى أن يعنى به الآباء والمربون والأمهات وعلماءَ الاجتماع، وإلا تعذر تنشـئة شـباب ينطوى إحساسهم نحو

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق: ص ص-104 105 .
(3) المصدر السابق: ص105 .

غيرهم على ذلك الشعور الجميل الخلاق. كما أن الحبَّ ضرورةٌ - أيضًا- لإشباع غريزة الحب الأبوى، والأطفال غالبًا ما يجمعون بين صفات الأب والأم، ولكن إذا انعدم الحب بين الأبوين، فإن النتيجة الحتمية لذلك هى أن كلاً منهما لن يحب فى أولاده غير الصفات التى تمثله ويكره فيه الصفات الأخرى. وهكذا يتحول الحب الأبوى، ذلك الحب الذى نراه من أهم العوامل التى تدفع المرء إلى متعة النفس وحب الحياة، يتحول حينئذ إلى مصدر للألم والشقاء[1].

**ولكن...**

**ما هى قيمة الحب فى حياة الإنسان؟؟**

يجيب رسل على التساؤل المطروح بقوله: «أن الحب من أعظم القيم فى الحياة الإنسانية، فهو يعلو على كل رغبة فى الممارسات الجنسية، كما يعد الوسيلة الأساسية من أجل الهروب من حياة العزلة التى تصيب معظم الرجال والنساء»[2]، فالحب هو ما يسبغ على الزواج قيمته الأساسية، فهو كالفن والفكر، أحد الأشياء السامية التى تجعل حياة الإنسان جديرة بأن يحافظ عليها، فليس هناكَ زواجٌ ناجحٌ ومثمر دون عاطفة الحب[3].

ويؤكد فيلسوفنا على حقيقة مؤداها أن عاطفة الحب عبارة عن قيمة لو استهدفت الامتلاك فحسب فهى عبث لا طائل من ورائه، ذلك أن الحب الحقيقى هو المشاركة فى الميول والرغبات، وإحساس المحب بأن ذات المحبوب لا تقل فى أهميتها عن ذاته. ومما يدعو للأسف أن مجتمعنا المعاصر بما فيه من صراع وتطاحن، لم يعد تربة صالحة لمثل هذا اللون من الحب، ذلك أن التنافس والتناقض طغيا على العواطف الإنسانية حتى كادت أن تختنق وتختفى من الوجود[4].

وهنا يمكن القول أن النظرية التى قدمها برتراند رسل فى تفسير الحب كعاطفة مؤسسة على رغبة الإشباع الجنسى والاتصال بين العشاق، تختلف إلى حد بعيد مع مضمون الحب العذرى الذى سيطرت عليه تعاليم الكنيسة فى العصور الوسطى المسيحية، فنظرية رسل فى الحب تتفق

(1) المصدر السابق: ص ص-104 105 .

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.64.

(3) برتراند رسل: نحو عالم أفضل، مصدر سابق، ص135.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص106.

إلى حد كبير مع النظرية التى قدمها العالم الإنجليزى «دارون»- في تفسير الجمال، حيث ربط «دارون» الجمال بالحب، أو الجنس بحجة أن الأصل في الجمال هو الجاذبية الجنسية، وأن المحبين هم الذين يبتدعون الجمال و يتصورنه، وأن الشعر نفسه وليد الحب والخيالات الغرامية[1]. وكذلك يطلق الحب على النزوع الجنسى بكل أشكاله ودرجاته. وذلك عندما تستعمل الكلمة بمفردها[2].

إذا كانت نظرية رسل فى الحب وعلاقته بالجنس، جاءت متفقة إلى حد بعيد مع النظرية الجمالية التى قدمها «دارون» فى تفسير الجمال وعلاقته بفكرة الحب، فلا غرو أن تأتى نظرية رسل فى الحب والجنس متفقة أيضًا مع نظرة فيلسوف معاصر - ربط بين الحب والحضارة في كتاب حمل هذا العنوان - ألا وهو «هربرت ماركيوز»، فإذا كان «ماركيوز» قد جعل الحب لصيقَ الصلةِ بمعنى التحرر الإنسانى، إلا أنه في نفس الوقت جعل الحب يتشكل و يتحدد في ضوء الغريزة الجنسية وحدها، وذلك على النقيض من نظرة بيرديائف التى يتعالى فيها الحب على الجنس و يسمو عليه، و يشكل عالماً مستقلا عنه، يعارض به عالم الغريزة الجنسية وهو عالم العبودية الإنسانية[3].

وقد جاءت نظرية رسل متفقة أيضًا مع نظرية الفيلسوف الأمريكى «جورج سانتيانا» فى تفسير الحس الجمالى وعلاقته بالجاذبية الجنسية، فقد أكد الأخير فكرته عن الوظيفة الجنسية فقال: «وكما أن القيثارة التى صنعت لكى تهتز حين تلمسها الأصابع، تكون مصدراً لبعض الموسيقى حين تهزها الريح، كذلك نجد أن طبيعة الرجل التى هى بالضرورة شديدة التأثر بالمرأة، تصبح في نفس الوقت حساسة إزاء المؤثرات الأخرى، وقادرة على الإحساس بالرقة والحنان إزاء كل موضوع، فقدرتنا على الحب هى التى تخلع على تأملنا هذا الوهج الدافئ الذى بدونه قد يعجز الجمال عن الظهور[4].

(1) زكريا إبراهيم: الفنان والإنسان- دراسات فى علم الجمال وفلسفة الفن، مكتبة غريب، القاهرة، 1973م، ص140.

(2) أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، بيروت- باريس، 2001م، ص55.

(3) محمد مجدى الجزيرى: شهادة على عصر من بيرديائف إلى جورباتشوف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001م، ص 392.

(4) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال، ترجمة: محمد مصطفى بدوي، مراجعة وتصدير: زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ص84

من خلال ما سبق تحليله لماهية الحب الذى انتشر بصور مختلفة فى شتى مناحى الحياة، يرى الكاتب أن مضمون فلسفة رسل فى أخلاقيات الجنس قد لا ترتضى الحب العذرى، كحب أصيل، ففلسفة رسل تكمن فى الاتصال الجنسى بين العاشق ومعشوقته، وأن لا يقف الحد بينهما إلى الخيالات الغرامية، وأوهام الخيال الأفلاطونية، وقد رأى الفيلسوف محل الدراسة أن التجربة والخبرة الحياتية قد أثبتت فشل الحب العذرى، لما فى الحياة من متاعب وأمور معقدة بين الزوجين، بينما الحب عند رسل يعد حبًّا هادفًا، و إن كان فى بعض الأمور قد لا يصل إلى الزواج، ولكن لا يمكن منع الحبيبين من الاتصال العاطفى، وفكرة رسل هنا تقف على النقيض من فلسفة العصور الوسطى المسيحية التى مجدت الزهدَ وحياة العزوبية، حيث أباح رسل هنا الحرية العاطفية، ولا سيما الحرية الجنسية.

ومن الأدلة التى تؤكد رأى الكاتب هنا، ما ذهب إليه «آلان وود» لمشكلة «الزواج والأخلاق» فى فلسفة رسل، فقد رأى «وود» أن رسل لم يكن يدعو إلى نظرية دون أن يكون مستعدًا لأن يراها توضع موضع التنفيذ، حيث ذكر رسل لصديقة متزوجة أنه ليس هناك سبب يدعو إلى ألا يكون لها عشيق، فضلاً عن أنه كان يطبق نظرياته على نفسه. فقد تخلى رسل عن تقاليد الزواج بواحدة، لأنه لما كان قد قرر بالجدل العقلى أنه يحبذ الحرية فى الحب، فقد شعر أنه لزامًا عليه أن يضع ما يحبذه موضع التنفيذ[1].

وقد سأل شخص رسل ذات مرة إذا كان لا يرى أنه يقسو على النساء اللاتى يهوينه، واللائى يفتر اهتمام رسل بهن فيما بعد، فرد عليه رسل متسائلاً: «لماذا؟ إنهن يستطعن هن الأخريات أن يجدن رجالاً أخرين». وتعبر هذه الملاحظة عن التواضع الذى يمكن للعظماء أن يتصفوا به، ففى فترة من فترات حياته الزوجية مع «دورا» ضرب رسل مثلاً حيًا على وضع نظرياته موضع التنفيذ، إلى الحد الذى سمح لواحد من عشاق دورا أن يعيش معهما تحت سقف واحد[2].

وخلاصة القول: الحب باعتراف جميع الناس هو أمتع صور الحياة الإنسانية، فالحب الذى يحرك الشمس وغيرها من الكواكب يتسامى بالنفس إلى ضرب من الرفعة أعلى من غايات الحياة[3].

(1) آلان وود: برتراند رسل بين الشك والعاطفة، مرجع سابق، ص 173.
(2) آلان وود: برتراند رسل - سيرة حياة، مرجع سابق، ص 222.
(3) ول ديورانت: مباهج الفلسفة، الكتاب الأول، ترجمة / أحمد فؤاد الأهوانى، تقديم / إبراهيم بيومى مدكور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955م، ص157.

ولذلك رآه رسل قيمة مهمة من قيم الحياة الإنسانية، بل رآه أعظم قيمة فى الوجود، ومن هنا رفض فيلسوفنا الاتصال الجنسى المبنى على الرغبة فقط دون التفكير فى عاطفة الحب، وعليها يختلف الحب الأصيل فى فلسفة رسل الأخلاقية عن الحب العذرى الذى يبتغى الزهد والرهبنة فى الحياة.

وأضف إلى ما سبق: أن فيلسوفنا أراد تأسيس فلسفة للحب، ولكن هذه الفلسفة التى يريدها ليست فلسفة عشوائية، بل هى فلسفة علمية. تقوم على أسس معرفية واضحة وصريحة فى مفهوم الحب بالمعنى الكلى للكلمة، وهذه إن دل على شىء إنما يدل على أن النزعة المعرفية فى فلسفة برتراند رسل قد تسللت إلى فلسفة الأخلاق برمتها، «إذ أن الحياة الكريمة فى فلسفته ينبغى أن يقودها الحب، وتستهدى بسبل المعرفة العلمية»[1].

(1) Olaf Stapledon Source: Mr. Bertrand Russell's Ethical Beliefs, International Journal of Ethics, Vol. 37, No. 4, The University of Chicago (Jul., 1927), pp. 390-402.